الدليل الثاني
التحدي ومعجزة الرسول

إن لكل دعوة بينة ، ومن البينات تظهر الحقائق ، وتدعم الحجج الواضحة ، ولو تصفحنا تراث الإنسانية لوجدنا أن هذا القرآن ، هو البينة الغراء التي تشهد لنبوة محمد ، وإِن الخوض في هذه الفكرة ، تدعونا للبحث الطويل . . وهنا لدينا فرضيتان :

الفرض الأول : أن يكون الرسول هو الذي أوجد هذا القرآن وبالتالي لا يمكن تصديق نبوته ، لأنه يشهد لنفسه بنفسه ولا يقبل شهادة الإنسان لذاته .

والفرض الثاني : وهو أن يكون الكتاب منزلاً من حكيم خبير وما دور الرسول فيه إلا التبليغ المبين ، وبهذا نصل إِلى الشهادة الحقيقية من القرآن بنبوة محمد بن عبد الله لأنها شهادة تمت من قبل صاحب التنزيل وهو الله جل جلاله .

وإِن نظرة سريعة خاطفة لآيات القرآن تدلنا على أن رجلاً أمياً لا يمكن أن يوجد تشريعاً متكاملاً ، ولفظاً معجزاً ، ومنهجاً يوضح

obeikandi.com

فيه للإنسانية سبل سعادتها بطريق مختصر ، وإِن قيل : إِن هذا الرجل عبقري فذ ، من عباقرة الأجيال . . . استطاع أن يكتب كما كتب الآلاف من العلماء في بحوث شتى . .

وهنا علينا أن نجيب هؤلاء الذين يقولون هذا القول : هل يمكن لهذا العبقري أن يكتب كتاباً يتحدى به الإنسانية مجتمعة ، علماً بأن اللغة العربية في عصره كانت في ذروة كمالها . . . ثم استمر في تحديه لبني قومه على الإتيان بجزء من القرآن ثم بعد ذلك بسورة واحدة وقد جاء فيها : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإِلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ [هود : ١٤] .

وعندما اجتمع أهل مكة ، وسمعوا هذا التحدي السافر ، لم يكن منهم إِلا السكوت والمكابرة ، وإِذ بالتحدي يزداد ، فتأتي آية أخرى تتحدى بسورة واحدة من السور ليتسنى لهؤلاء العرب أن يقفوا وقفة عاقل ، ويشعروا بحقيقة الموقف ، وإِنها لفتة قرآنية رائعة وتخفيف في التحدي إِلى منزلة جيدة فجاء في القرآن :

﴿ وإِن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإِن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت

للكافرين ﴾ ،[البقرة : ١٥] .

والمتحري للمعنى المراد في الآية يجد التحدي مع النتيجة سلفاً وهي عدم الإمكان ، وقد قطع دابرهم بأنهم لن يفعلوا ، وهي كلمة يستحيل التلفظ بها إِلا ممن يملك ناصية البشرية ، ولا يمكن أن يقولها عربي من العرب أبداً . . وقد سمع هذا التحدي بلغاؤهم وشعراؤهم ، واستقرت في آذانهم ودارت على ألسنتهم ، وعرفوا أنها تنفي عنهم القدرة نفياً ، وتعجزهم حتى آخر الأبد ، فما فعلوا ولا طمعوا قط أن يفعلوا ، وما كان بوسعهم إِلا المجانبة للموضوع وعدم المجابهة له لسطوع بيانه . . . فبدأوا يقولون : إنه ساحر ومرة شاعر . . . وأخرى مجنون . . .

وقد وصف الجاحظ هذا التحدي وما آل إِليه عند العرب فقال :

بعث الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عدة ، فدعا أقصاها إِلى توحيد الله وتصديق رسالته ، **فدعاهم بالحجة ، فلما قطع القدر وأزال الشبهة وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة** ، حملهم على خطهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ونصبوا ، وقتل من عليهم ، وأعمامهم وأعلامهم ، وبني أعمامهم ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويتحداهم به صباحاً ومساء على أن يأتوا بسورة من مثله ، فكلما

ازداد تحدياً لهم ، وتقريعاً لعجزهم كشف عن نقصهم ما كان مستوراً ، وظهر منه ما كان خفياً ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له : أنت تعرف من أخبار الإمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا قال : فهاتوها مفتريات ، فلم يَرُمْ ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولا طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ، ويكابر فيه ، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك العاقل على عجز القوم ، مع كثرة كلامهم واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء أصحابه ، وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله ، وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال ، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش ، والعرب في الرأي والعقل طبقات ولهم التعديد العجيب ، والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور ، ثم تحدىٰ به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم فمحال أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر ، **والخطأ** المكشوف البين مع التقريع بالنقص ، والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إِليه ، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر

الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، وكما أنه من المحال أن يطيقوا ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إِليه وهم يبذلون أكثر منه أهـ .

إنه بحث وأطنب ، وأجاد في مناقشة الوضع الذي كانت عليه قريش إِبان التحدي ، ولقد جاء بكبد الحقيقة عندما قال : هم أعلى طبقات العرب ، وبيدهم مقاليد الكلام وقد تحداهم القرآن فكيف يسكتون . . . وما السكوت في هذا المقام إِلا اعتراف ضمني بقدرة المتحدي وضعف ما سواه . . ولكن المتطلع في تراثنا يجد أن بعض العرب حاولوا مضاهاة القرآن وحاول بعضهم معارضته ومشاكلته ومنهم مسليمة بن حبيب (الكذاب) وقد جاء بأشياء لا يقبلها أديب ، ولا يرضاها حكيم عاقل يحترم نفسه وذلك مثل قوله :

والشاء وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض إِنه لعجب محض ، وقد مرم المذق فما لكم لا تمجعون[1] .

وقال : (والمبديات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص١٥٦ .

قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إِهالةً وسمناً قد فضلتم على أهل الوبر ، وماسبقكم أهل المدر ، ريفكم ما منعوه ، والمعتر فآووه ، والباغي فناوئوه) .

وكذلك جاءت سجاح بكلمات تدعي أنها يوحى إليها : ومما قالته لمسيلمة عندما سألها أوحى الله إِليك قالت « ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، ما بين صفاق وحشا » وقال فما بعد ذلك قالت : أوحى إِلي : إِن الله خلق النساء أفواجاً ، وجعل الرجال لهن أزواجاً ، فنولج فيهن مقساً إيلاجاً ثم نخرجها إِذا شئنا إخراجاً ، فينتجن لنا سخالاً نتاجا . . .

هـذا الكـلام علـى هـذا النمـط واه سخيـف ، لا ينهـض ولا يتماسك بل هو مضطرب النسج متبدل المعنى ، مستهلك من جهتيه ولا يرضى به عاقل منصف وبالحقيقة هو تقليد من حيث الأسلوب ، وضياع في المعنى . .

وقيل إِن ابن المقفع حاول مضاهاة القرآن ولكن بعد فترة وجد نفسه يسير في صحراء لا يجد لنفسه المخرج فمزق ما كتب وعاد إِلى صوابه .

وكذلك أبو الحسن ابن الرواندي حاول في عدة كتب له أن يأتي بأشياء كثير ليشوه الفكرة الصحيحة التي كانت في زمنه عن القرآن

وكل ذلك بدس من يهودي كان يؤلف له وهو (أبو عيسى الأهوازي) وقد ذهب قيمة ما كتبه في مقالاته وكتبه الكثيرة كالزمردة ، ونعت الحكمة ، والتاج عند مناقشته مع أبي علي الجبائي : قال ابن الراوندي : أنا أعلم بمخازي علومك وعلوم أهل دهرك ، ولكن أحاكمك إلى نفسك ، فهل تجد في معارضتك له عذوبة ، وهشاشة ، وتشاكلاً وتلاؤماً ، ونظماً كنظمه وحلاوة كحلاوته . . قال ابن الراوندي : لا والله .

قال الجبائي : قد كفيتني ، فانصرف حيث تشاء .

ويقال إن ابن الراوندي كان أبوه يهودياً وأسلم والخلاف في أمره كثير .

ومهما حاولنا تمويه الحقيقة ، فهل يمكن للتاريخ أن يطمس ، وللأقلام أن تقف والجواب : لا . . إذن لماذا لم تتجرد أقلام الأدباء والحكماء والفلاسفة للإتيان ببحث كالقرآن . . وأسلوب كأسلوبه . . الجواب بسيط . . إنه الإعجاز ولأن في آية التحدي إعجاز وتعجيز للعالم كله مجتمعاً . .

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ [الإسراء : ٩] .

انظر إلى هذا النفي المؤكد ، بل الحكم المؤبد !! هل يستطيع عربي يدري ما يقول أن يصدر هذا الحكم ، وهو يعلم أن مجال

المساجلات بين العرب مفتوح على مصراعيه وأن الناقد المتأخر متى أعمل الروية في تعقيب قول القائل المتقدم لا يعيبه أن يجد فيه فائتاً ليستدرك ، أو ناقصاً ليكمل ، أو كلاماً ليزداد كمالاً ؟ ألم يخشَ محمد ـ لو كان من عند نفسه ـ بهذا التحدي أن يثير حمية أعدائه الأدبية فيهبوا لمنافسته ، وهم جميع حاذقون ؟ وماذا يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة ، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر ، فيكمل ثانيهم ما أنقصه أولهم ، وهكذا ، حتى يخرجوا كلاماً إن لم يبزه فلا أقل من أن يساميه ولو في بعض نواحيه ؟ ثم لو طوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره .. فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة بل على الأنس والجن !!.. إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها إلا رجل يعرف قدر نفسه ، وهو مالئ يديه من تصاريف القضاء ، وخبر السماء ، ونحن قد عرفنا شخصية محمد المعتدلة ، واتزانه الرصين ... ولكن قد رمى هذا التحدي بين أظهر العالم ، فكان القضاء المبرم ، وقد سلط إقحامه على العقول والأفواه ، فلم يهم أحد بمعارضته إلا باء بالعجز الواضح والإخفاق الفاضح على مر العصور والدهور .

فماذا يقول المكابرون ... هل أنزل من السماء ... أو ماذا ..؟ وإن الذين سمعوا القرآن من أهل مكة ، لم يلبثوا ملياً حتى أظهروا إعجابهم من حيث يدرون ومن حيث يجهلون ..

وانطلقت ألسنة بعضهم بالمدح والوصف الحقيقي بشعور بعيد عن الحقد ومنه :

جاء الوليد بن المغيرة مرة إلى محمد بن عبد الله وبدأ يتكلم معه بأسلوب رقيق وبعد نقاش طويل قال اسمع يا أخا العرب : فأسمعه آيات من القرآن . . . فكأنه رق له . . . فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه لئلا تأتي محمداً ولتعرض لما قاله ، فقال الوليد : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال أبو جهل : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا أشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته ، قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

قال : فدعني حتى أفكر . . . وبعد مدة اجتمع بأهل قريش فقال أحدهم أصبأت يا وليد قال لا ولكن أقول : شاعر ثم وقف وتردد ثم قال أقول ساحر فجاءت الآيات تصف تردده :

(إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر . . .)

ومن هنا نلمح الإصرار على المخالفة والنتيجة قد غايرت المقدمة . . التي صرح فيها حلاوة القرآن . . ومن ثم فكر لإرضاء بني قومه ولو على حساب الحقيقة التي شعر بها في أعماق وجدانه .

ولا بأس أن نرد هذه الحادثة التي جرت بين رجل من قريش أوفدته إلى محمد كما جاء في كتاب المغازي لابن إسحٰق :

أرسلت قريش عتبة بن ربيعة وهو رجل رزين هادئ فذهب إلى محمد بن عبد الله[1] فقال له : يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها : إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً . وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا من أموالنا حتى تبرأ . فلما فرغ من قوله قال له محمد ليس في كل ما تقول واسمع : فتلا عليه صدر سورة السجدة :

﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا

---

(١) قصة أخرجها ابن إسحق في المغازي بسند حسن .

وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون . . . ﴾[1]

حتى وصل إلى قوله :

﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة عاد وثمود ﴾

ولقد تخير محمد عليه الصلاة والسلام هذه الآيات من الوحي ليعرف محدثه حقيقة الرسالة وما محمد إلا رسول يحمل كتاباً من الخالق إلى خلقه يهديهم من ضلال وينقذهم من ضياع . وهو قبل غيره مكلف بتصديقه والعمل به والنزول عند أحكامه . لقد جاء عتبة باسم قريش ويريد أن يترك محمد الرسالة والدعوة التي جاء بها ولكن بعدما استمع عتبة إلى هذه الآيات ، تيقظ ما كان نائماً من فكره ، واستمع إلى الوعيد يهدر فيحرك ما كان هاجعاً من عاطفته ، فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . . لقد وضع عتبة يده على جبينه وقام وكأن الصواعق ستلاحقه وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تدع محمداً وشأنه . . إنه أثر القرآن ويا للأسف . . لم تقنع العقول المكبلة بتقاليد الماضي . . . ولو أن

---

(١) فصلت/١ ـ ٦ .

أهل مكة ترددوا في تصديق محمد بن عبد الله حتى يبحثوا أمره ويمحصوا رسالته ويزنوا على مهل ما لديهم وما جاء به ، لما عابهم على هذا عاقل مدرك ولكنهم نفروا من رسالة محمد نفور المذنب من ساحة القضاء بعدما انكشفت جريمته وثبتت إدانته . . ولو لم يكونوا على هذه الحالة لأجابوا القرآن في تحديه . . وعارضوه في تقريعه . . ولكن أنى لهم . . ذلك . . ؟ لأن وجود الإعجاز في القرآن ، وروح التحدي تسير في عروق كل من يقرأ آيات التحدي ، لأنه أسلوب منفرد لا يشابهه أسلوب . ولو كان من أسلوب إنسان لجاء مشابهاً لأحد أساليب العرب ولذا وقع أهل مكة في شبائك الحيرة فقالوا تارة شاعر . . وتارة كاهن ، وأخرى ساحر . .

ولم يثبتوا على شيء لاضطراب تقييمهم المخالف للحقيقة التي نطقت بها أفواههم مرات ؛ وجلبهم القرآن ليلاً مرات أخرى . ومما يروى أن نفراً من كبار قريش ذهبوا لاستماع القرآن سراً ومنهم (الوليد بن المغيرة ـ وعمرو بن هشام ـ وقيس بن هشام ـ والأخنس بن قيس) وبعد أن انتهوا من سماع القرآن من شقوق النوافذ أثناء صلاة محمد عليه الصلاة والسلام انصرفوا فجمعهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا إذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوا واستمعوا إلى ما يقوله فتستحليهم تلك الآيات فيؤمنون بمحمد وتعاهدوا على ألا يعودوا لمثل ذلك . فلما كانت الليلة الثانية عادوا وأخذ كل منهم موضعه فلما أصبحوا جمعتهم الطريق ،

فاشتد نكيرهم ، وتعاهدوا ، وتحالفوا ، ألّا يعودوا فلما تعالى النهار . جاء الوليد بن المغيرة إِلى الأخنس ، فقال ما تقول فيما سمعت من محمد . فقال الأخنس ماذا أقول ؟ قال بنو عبد المطلب : فينا الحجابة ، قلنا نعم ، قالوا فينا السدانة . قلنا نعم ، قالوا فينا السقاية . قلنا نعم .. يقولون فينا نبي ينزل عليه الوحي !! والله ما آمنت به أبداً ! .. فما صدهم إِذن عن الإيمان إِلا العصبية المقيتة كما ترى .. وكما قرأت في مواضع شتى .. فنزلت الآية تبين تلك العدواة العصبية التي لا تعتمد على حجة منطقية ولا على رد علمي سليم :

﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآنِ والغوا فيه لعلكم تغلبون .. ﴾ .

وبعد هذا كله : نقول للذين يغمطون الحق .. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .. وإن الباب مفتوح لكل من يرد على التحدي القرآني علماً بأن أهل اللغة الأوائل لم يستطيعوا الوقوف أمام تحدي القرآن فمن الأولى أن يكون غيرهم أضعف منهم ..

وقد أيقن بلغاء العرب معنى التحدي فيئسوا من المعارضة لأنهم وجدوا في القرآن ما يغمز القوة ، ويحيل الطبع ، ويخاذل النفس مصادقة لا حيلة ولا خدعة وهكذا اعتقلهم عن الكلام فيه

وضربهم بالحجة من أنفسهم وتركهم وجميع الأمم اللاحقة للتحدي ، وجعل التحدي أكبر دليل لكل مخالف .

فهل استطاع البلغاء مقارعة التحدي بالمماثلة .. أو وقف جميعهم صاغرين فما بال الأقزام اليوم .. الأقزام في الأدب والبلاغة والفلسفة .. يحاول بعضهم أن يتطلع مستهتراً بالمنطق ـ ويناقش أموراً جانبية وجزئية لأن عقولهم الكليلة لم تستطع مناقشة الكليات العامة فشككوا بالجزئيات[1] كأمثال صادق جلال العظم في كتابه نقد الفكر الديني وإن مناقشته للجزئيات ضعف كبير في حجته ولبلادة فكره . وأما إذا قلنا له تعال ناقش كتاب الله كله ، ناقش فكرة وجود الله بحد ذاتها .. وناقش فكرة بعثة محمد رسول الله .. ولى مستدبراً خائراً لا يلوي على شيء لخوره ولأن بضاعته مزجاة ، وعقله فيه خبل ، والأسس التي ركن إليها هاوية ، فالمناقشة تكون للكليات وليس للجزئيات علماً بأن مناقشة الجزئيات اعتمدت على بحوث مبتورة واطلاع ضحل ممزق ..

ولذا أقول إن شعور أبلغ الناس بضعفه عن أسلوب القرآن ليكون على مقدار شعوره من نفسه بقوة الطبع ، واستفاضة المادة ، وتمكنه من فنون القول وتقدمه في مذاهب البيان ، فكلما تناهى الأديب في علمه تناهى كذلك في علمه بالإعجاز ، وما أهل الأرض

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢/ ٢٢٥ .

جميعاً في ذلك إِلا كنفس واحدة فجاء التحدي للجميع .

﴿ أم يقولون تقوله ؟ بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إِن كانوا صادقين ﴾ [الطور : ٣٤] .

والسبب الكبير الذي يعود لعدم محاكاتهم للقرآن ، وإبطال تحديه لهم ، على الرغم من شدة تقريعه ، وتعنتهم بالكفر والجمود وغير ذلك لأن ملكتهم اللغوية كانت سليمة ، وقد ملكوا القدرة الفنية ، وبلغوا الذروة في الأدب فصار حكمهم عن معرفة ، والضعيف إِذا شعر بقوة خصمه الزائدة لا يحاول التطاول عليه وهذا شعورهم بالنسبة للقرآن ووقوفهم عن معارضته ، ولأن القرآن فيه مظهر غريب بإعجازه المستمر ، ولا يحتاج في تعرفه إِلى روية فبمجرد أن يقرأه من اطلع على أساليب الناس يقع في نفسه معنى الإعجاز ، لأنه أمر يغلب على الطبع وينفرد به فيبين عن نفسه بنفسه كالصوت المطرب المبالغ في الإطراب لا يحتاج المرء في معرفته وتمييزه إِلى أكثر من سماعه وإن من الإعجاز ذلك النظم الموسيقي الواضح في القرآن وهذا ما بينه الكاتب الأديب الفاضل مصطفى صادق الرافعي قائلاً : إِنه مما لا يتعلق به أحد ولا يتفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إِلا منه ، لترتيب حروفه باعتبار من أصواته ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر والشدة والرخاوة ، والتفخيم والترقيق والتفشي

والتكرير[1] .

ويرى الرافعي « أن القرآن كان نمطاً واحداً في القوة والإبداع وإن مرد ذلك إلى روح التركيب التي تنعطف عليها جوانب الكلام الإلهي وهذه الروح على حد تعبيره لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن ، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيعه الناس ولولاها لم يكن ، فكأنما وضع جملة واحدة ، ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين إذ نراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها ، ثم إلى تأليف هذا النظم ، فمن هنا تعلق بعضه على بعض ، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة هي صفة إعجازه في جملة التركيب لما عرفت ، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبادات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال إلى نحو مما يدور عليه » .

ولذا تستطيع أن تلمح الصور الرائعة في كل لفظ ولا ترى في حقيقة الأمر ألفاظاً ولكن حركات نفسية في ألفاظ . .

وبعد هذا كله : هل بقي في عقلك شك أيها السائل ؟ . . هل بقي في خلدك سؤال ؟ فإذا ما زال يعلق في ثنايا الدماغ سؤال فانظر

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢/ ٢٢٥ .

معنا إِلى هذه الآيات وتعال لنحللها :

﴿ فالق الإِصباح وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[1] .

انظر إِلى هذه المقاطع الأربعة التي ألف بينها في معنى شامل هادف ، واضح ، ليدل بذلك على ظهور قدرته بعد بيان مخلوقاته . . أليس في كل كلمة منها في نفسها غرة ؟ . .

أما تشاهد أن كل مقطع بنفسه درة زمردية هبطت على النفس لتلبسها قدرة جديدة ؟ إِنه كلام يصدر عن سمو ورفعة ، ونفاذ قدرة ، ويظهر جلياً في عظمة القدرة ويتسم بعزة خالصة . ويجمع رصانة مع رونق سلس رفيع ، ويحق لي أن أقول إِن هذه الآيات شملت الإِيجاز اللطيف ، إلى البلاغة الرفيعة ، وكل ذلك بخيال خصب وروح فياضة .

إنها الآية التي انتظمت من البديع ، وتضمنت بحثاً في كلمة وختمت غاية في جملة . . إنها آية واحدة من آيات الإعجاز .

وتأمل آية أخرى :

﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده

---

(١) الأنعام ٩٦ .

لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إِن الله سريع الحساب ﴾[1] .

أنعم النظر في هذه الآية « ارجع البصر كرتين » مع مراعاة معانيها . وفكر ملياً ، تجد صفات عالية ، وكلمات سامية ، أما تلمح ورود هذه الكلمات من مصدر علوي وقدرة ربانية ، ولا تحوم عليها أفكار آدمية تعرف ضعفها عن الخوض في بحث وتهديد كهذا . . أي خاطر يرد على الإنسان أن يقول :

﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون ﴾ ؟

أي لفظ يدرك هذا المضمار ، وأي حكيم يهتدي إِلى ما لهذا من العمق والعلو وأي فصيح يدرك هذا النظم ؟ . .

لا جرم أن البيان الشامخ الذرى لا يرتكز على سطح الأرض وإنما يرتكز على دعائم غائرة في أعماق الثرى . .

لقد أطلت عليك كثيراً وما بقي لدي سوى نقاط متناثرة على أن أتمم هذا البحث . . لقد عجز الأوائل . . وعجز الأدباء في كل عصر . . فعليّ أن أجمع لك أقوال الأدباء في كل عصر عن هذا

---

(١) غافر ١٤ ـ ١٧ .

obeikandl.com

القرآن لعلك تجد في لفتات كل أديب نسمة إيمان أو لمحة إعجاز :

١ ـ قرأت ما قاله الوليد بن المغيرة عن هذا القرآن : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته .

ويقول الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن ص٨٨ .

تجد فيه الحكمة ، وفصل الخطاب ، مجلوة عليك في منظر بهيج ، ونظم أنيق ومعرض شيق ، غير معتاض على الأسماع ، ولا مغلق على الأفهام ولا مستكره على اللفظ ، ولا مستوحش في المنظر ، غريب في الجنس غير غريب في القبيل ممتلئ ماء ونضارة . ولطفاً وغضارة ، يسري في القلب كما يسري السرور ، ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم ، ويضيء كما يضيء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، طموح العباب ، جموح على المتناول المنتاب ، كالروح في البدن ، والنور المستطير في الأفق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهي .

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

من توهم أن الشعر يلحق شأوه بان ضلاله ووضح جهله ، إذ الشعر سمت قد تناولته الألسن وتداولته القلوب وانثالت عليه الهواجس .

والقرآن كتاب دل على صدق حامله ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها ، وبرهان شهدت له براهين الأنبياء المتقدمين ، وبينة على طريقة ما سلف إلى الأولين تحداهم به إِذ كان من جنس القول الذي زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية ، وبلغوا فيه الغاية فعرفوا عجزهم .

ويقول الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي في كتابه إعجاز القرآن ، آيات منزلة من حول العرش ، فالأرض بها سماء هي منها الكواكب بل الجند الإلهي قد نشر له من الفضيلة علم ، وانضوت إليه من الأرواح مواكب ، أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها ، وامتنعت عليه أعراف الضمائر فابتز أنفالها ، وكم صدوا عن سبيله صداً ومن ذا يدافع السيل إذا هدر ؟ وفتحوا عليه من الحوادث كل شدق فيه ومن كل مواهبه باب ؟ فما كان إِلا نور الشمس ولا يزال الجاهل يطمع في سرابه ثم لا يصنع منه قطرة في سقائه . . ألفاظه إِذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإِذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، ومعان بينا هي عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نعيم الجنان ، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان . . لا جرم أن القرآن سر السماء فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول ومعنى الخلود في دولة الأرض إِلى أن تدول ، وكذلك تمادى العرب في طغيانهم يعمهون . . وظلت آياته تلقف ما يأفكون

فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . .

ولا شك أنك قرأت ما قاله الجاحظ في بداية البحث . . وسأثبت لك ما قاله عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في كتابه مرآة الإسلام أما القرآن الكريم فهو المعجزة الكبرى التي آتاها الله رسوله الكريم آية على صدقه فيما يبلغ عن ربه ، والقرآن كلام لم تسمع العرب مثله قبل أن يتلوه النبي . . والعربي القديم من أهل الفصاحة واللسن والبراعة في تصريف القول قد سمع القرآن فراعه منه ما راعه واستجاب له هذه الاستجابة التي يعرفها التاريخ . . وأغرب من ذلك أن أمماً أخرى ليس بينها وبين العرب أية صلة قد قرأت القرآن وسمعته في القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة فدانت له وخشيت وأيقنت أنه كلام لا مثيل له شأن آخر . ولست أذكر هنا تأثير القرآن في تغيير مجرى التاريخ وتحويله وها هي الأمة الجاهلة الغافلة التي تعيش في أمية شديدة التعصب للباطل يضرب بعضها رقاب بعض ، وينهب بعضها أموال بعض فاذا هي تصبح أمة قد خلقت خلقاً جديداً فألفت النظام والأمن والعدل وطمحت إلى الرقي وظفرت منه بحظ موفور ، ونشرت هذه الخصال كلها بين أمم كثيرة في الأرض ثم مزجتها وجعلت منها أمة واحدة تتعاون على الخير والبر وترقية الحضارة . . والقرآن وحده مصدر هذا كله فلولاه لظلت الأمة العربية على جهلها وغلظتها وانقسامها ولطمع فيها غيرها من الأمم المتحضرة فاستذلها واستغلها وبسط عليها

سلطانه . وقد ألفت كتب قديمة وحديثة في إعجاز القرآن ، ولكنها على كثرتها لم تقل في أعجازه كل ما يمكن أن يقال لأنه أروع روعة وأبهر جمالاً من أن يستنفد فيه القول أ . هـ

ولنفكر ملياً في هذه الآيات :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ ، [النساء : ٨٠] .

﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ ، [النساء : ١٧٤] .

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ ، [المائدة : ١٦ ﴾ .

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليَّ ولم يوح إليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ﴾ . . . . . . [الأنعام آية : ٩٤ .

وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً وقرآناً فرقناه لتقرأه على مكثٍ ونزلناه تنزيلاً . . قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ . . . . [الإسراء : ١٠٦ ـ ١٠٧] .

﴿ هذا ذكرٌ مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ [الأنبياء : ٥٠] .

﴿ إِنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإِنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ﴾ [الزمر : ٤٣] .

وبعد هذه الآيات الكريمة لا يسعنا إِلا أن نقول :

ما دامت قوة الخلق ليست في قدرة المخلوق فليس في قدرة بشر معارضة هذا الأسلوب المعجز وتحدي القوي الحكيم الخبير به .

فلنرفع رؤسنا ونقولها بصراحة علمية ﴿ إِنه تنزيل الحكيم الخبير ﴾

وهذا هو الشاهد الكبير العظيم على نبوة محمد فصلى الله عليه وسلم .

obeikandl.com